في ندوة الشيخ عبد العزيز الرفاعي

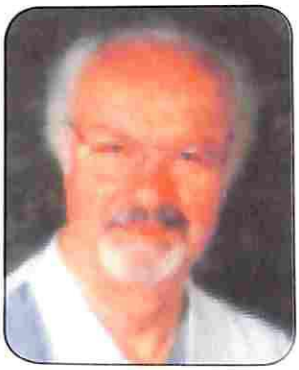

فاضل السباعي - سورية

تعود معرفتي للشيخ عبد العزيز الرفاعي - رحمه الله - إلى ما قبل حضوري الأول لندوته التي كانت تعقد كل خميس عندما يكون موجودا بالرياض. وكنت قد جريت وأنا بدمشق،على أن أزود المجلة الفصلية عالم الكتب ، التي تصدر عن مؤسسته دار ثقيف للنشر والتأليف، بمقالة ترصد بعض ما يصدر من كتب في سورية، وهكذا جعلت من همي، مذ نزلت الرياض في أول زيارة لي إلى المملكة العربية السعودية في ربيع العام ١٩٨٥ (رجب ١٤٠٥هـ). أن أتوجه إلى إدارة المجلة للتعرف إلى رئيس تحريرها يحيى محمود ساعاتي، وعلى صاحبها الشيخ عبد العزيز الرفاعي، الذي ذاعت شهرته هو وندوته الخميسية. وقد علمت من رئيس التحرير، الذي استقبلني بحفاوة مضفيا على لقائي به كثيرا من الود، أن الشيخ موجود في مكتبه، ولاح لي أنه يعرف أني إن التقيته الساعة فسوف أربح دعوة منه لحضور الندوة في اجتماعه الآتي بعد يومين اثنين. وهذا ما كان.

ولأن العاصمة الرياض أصبحت، بامتدادها الجغرافي الأفقي، بعيدة الأرجاء واسعة فإن زميل الدراسة بحلب، صديق العمر، الدكتور عبد القدوس أبو صالح (الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية منذ ثلاثين عاماً ويزيد)، أخذ على عاتقه أن يصحبني إلى دارة الشيخ الرفاعي، ولما دخلناه، جلسنا أنا وعبد القدوس متجاورين في مقعد وثير واحد، ووجوه القوم، في الأدب والثقافة، تعمر الندوة التي رأيت في وسطها سيبا قد ركب عليه لاقط للصوت ينضي شريطه الممتد إلى حيث يسجل الكلام والحديث. وكان، في جانب من القاعة باب عريض ينفتح على غرفة جانبية، قد انتظم فيها شبان محبون للعلم والمعرفة جاؤوا يستمعون ويستمتعون. و كان بين الحاضرين وجوه سورية عرفت منها: الأديب اللغوي عبد الرحمن الباشا، والدكتور "معروف الدواليبي، رئيس مجلس النواب ومجلس الوزراء في عهد مضى.

وكان الشيخ عبد العزيز يجلس في مهابته متخذا ركنا، وقد رحب بالحاضرين... ثم بدأت الجلسة.

وبدا أن «التقليد» في الندوة جرى على أن يتكلم الضيف، الذي يحضر للمرة الأولى أو يعود إليها بعد غياب طويل معرفا بنفسه.

واتفق أن كان في هذا الاجتماع «محمد أسد» (المستعرب النمساوي «ليوبولد فايس») صاحب الكتابين الشهيرين «الطريق إلى مكة» و «الإسلام على مفترق الطرق» فالتمسوا منه التعريف. فاعتذر بلطف، والحق معه، فهو أشهر من أن يعرِّف أو يعرَّف فضلا عن شيخوخة فيه تنم على أنه تكلم وعرف قبل هذا اليوم كثيرا. ولكنهم سألوه - وإن له ابنا في المغرب - عن حال الابن و ما إذا كان يتابع مسيرة أبيه في الدعوة إلى الإسلام؟ وأذكر إن لم تخني الذاكرة، أنه أفاد بأن ابنه الآن أكثر عناية بالعلم والعمل الأكاديمي.

وجاء الدور لضيف مصري، كان يشغل آنذاك نائب رئيس جامعة القاهرة هو الدكتور «أحمد هيكل» (شغل

بعد ذلك اليوم منصب وزير الثقافة) فعرف بنفسه: أكاديمي، متخصص بالأندلسيات في جامعة مدريد. وعلمت أنه يقول الشعر أيضا. وأسمعنا من جميل شعره ما أطربنا.

ولما كنت أصغر سنا بين الضيوف الجدد، فقد جاء دوري بالتعريف أخيرا. وماذا يسعني أن أقول عن نفسي سوى أني كاتب يهوى كتابة القصة و الرواية، وأن لي نحو عشرين كتابا (في ذلك العام)، وأنَّ شيئا من أدبي قد ترجم إلى بعض اللغات، وأني درست الحقوق بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة فيما بعد)، وأني تركت آخر وظيفة لي عند الحكومة، مديرا في وزارة التعليم العالي، محيلا نفسي على التقاعد قبل الأوان كي أتفرغ للكتابة؟!... ثم أمسكت عن الكلام.

عبدالعزيز الرفاعي

ولكن جاري الدكتور عبد القدوس، إلى يميني، لم يرضه من صديق العمر هذا القدر من التعريف، فتدخل ليفتح بابا للقول عريضا، وأخبر أن صديقه يكتب قصصا يتوسل فيها بـ «الفانتازيا» ليقول ما لا يمكن أن يقال!

- فـ...لو يحدثنا عن هذا الاتجاه في أدبه!

فارتفعت الأصوات، يريدون أن يسمعوا جديدا، وقالوا: هات!

فتحدثت عن أن الكاتب – وقد حلا لي أن أصفه بأنه «ضمير أمته» يرى الخطأ يشيع حوله، وهو إن صرح تعرّض، إن تصامم توجّع وتمرّض... هنا يتوسل بالخيال سبيلا إلى التعبير عما يعاني، تقرأ له فتظن أنه يحلم، أو أنه يذهب في الخيال بعيدا، ولكنك تتبين أنه يتكلم في الصميم، ثم ما تلبث أن تعود إلى الظن بأنه يتخيل... وهكذا يؤرجحك بين التصديق والتكذيب، قبل أن تنتهي من قراءة النص، فتدرك أن الكاتب كان يحلم، ولكنه قال ما يريد.

قلت هذا وما يماثله من القول، وذكرت ابن المقفع و«كليلة ودمنة»، وترددت على لساني كلمة «الفانتازيا» غير مرة... ذلك كله على مشهد من وجوه الثقافة، وعيونها التي كانت ترمقني، قالوا:

- والأنموذج؟ هات مثالاً على ما تقول!

فقلت: وقع أحدهم يوماً، تحت أيدي الجلادين، اتهموه: أنت قلت! قال: لم أقل! قالوا: أنت فعلت! قال: لم أفعل! قالوا: أنت تواطأت مع الأعداء! صرخ: بريء، بريء، بريء أنا يا ناس! أخضعوه للتعذيب!، ففاضت بين أيديهم روحه، التي صعدت، لتعود إليهم شبحا، في يده هراوة، انهال بها عليهم حتى أثخنهم. كان يراهم ولا يرونه، وكان يسمعهم ولا يسمعونه، وكان، وكان... ولكن المتجاوبين مع القصة، لم يدعوني أكمل، منعني عجبهم مما أسمعتهم، وضحكهم المتعالي، من أن أصل بالقصة إلى منتهاها! أو لعلهم ما منعوني، فأكملت، وزدت شرحا وتفصيلا... فظُنَّ خيرا! ولا تسأل عن الخبر!

أقول: أمتعتهم، وأضحكتهم، ولكني لم أحملهم على النوم فأخرج متسللا، كما فعل الفارابي يوما ■